دور الحج في الوحدة الإسلاميّة

محمد ثمير الدين الغازي*

﴿وأذِّنْ في الناس بالحجّ يأتُوكَ رجالاً وعلى كلّ ضامِرٍ يأتينَ مِنْ كلّ فجٍّ عميق ● ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيّام معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكُلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾(١).

هذه هي الآية التي ذكر فيها مقاصد الحج والزيارة: أوّلها: **﴿ليشهدوا منافع لهم﴾** والثاني: **﴿ويذكروا اسم الله﴾** والثالث: **﴿وأطعموا البائس الفقير﴾** أعني شهود منافع المسلمين، وذكر الله وإطعام المساكين والفقراء، وقدّم الله تعالى في آيته الكريمة بيان شهود منافع المسلمين فبدأ بالقسم الأوّل أي شهود المنافع لأنفسهم والمسلمين، فيجب على الحجّاج أن ينظروا منافع الدنيا والآخرة لهم وللمسلمين في مؤتمر الحج العالمي الإسلامي، ومنافع المسلمين جميعاً هي منافعهم فرادىٰ أيضاً؛ لأنّ الجماعة تتألّف من آحاد الناس، فما ينفع الناس ينفع الفرد منهم.

● وقد فسّر المفسّرون «المنافع» بأنها شاملة لمنافع الدنيا والآخرة جميعاً،

(*) أستاذ علوم الحديث والتفسير بجامعة الإسلامية ـ بنغلادش.

(١) الحجّ: ٢٧ ـ ٢٨.

فقال المفسِّر محمد بن جرير:

(المنافع لهم) جميع ما يشهد له الموسم يأتي له مكة أيام الحج من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصّص من ذلك شيئاً من منافعهم بخبر ولا عقل فذلك على العموم التي وصفت[١].

فعمّم الإمام ابن جرير الطبري «المنافع» على قسمين: منافع الدنيا والآخرة وقال: إنّ العقل والنقل لم يخصصاها بإحدى المنافع الأخروية أو الدنيوية، فالآية على عمومها تدلّ على القسمين لا مخصص لها من عقل ولا نقل.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة في توضيح الآية: قال الله تعالى: ﴿**ليشهدوا منافع لهم**﴾ روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: التجارة وما يُرضي الله من أمر الدنيا والآخرة.

وروى عاصم بن أبي النجود عن أبي رزين عن ابن عبّاس قال: أسواق كانت، ما ذكر المنافع إلّا لدنيا[٢].

ففسّر ابن عباس «المنافع» بالأسواق التي تباع فيها الأمتعة، وما يحتاج الناس إليه في الموسم من متاع الحياة الدنيا فهي مخصوصة عنده بمنافع الدنيا، هذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنه.

وهذا هو القول؛ لأنّ منافع الآخرة ذكرت في الآية مستقلّة تحت عنوان ﴿**ويذكروا اسم الله في أيّامٍ معلوماتٍ**﴾ وفي ﴿**وأطعموا البائس الفقير**﴾ فبقيت منافع الدنيا تحت عنوان: ﴿**ليشهدوا منافع لهم**﴾ وابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأُمّة، وهو إمام في التأويل على جميع الناس، وعنده كان علم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ودعا له النبي صلى الله عليه وآله بقوله عليه الصلاة والسلام: «اللّهم فقهه في الدين

(١) تفسير ابن جرير ١٧: ١٠١.
(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣: ٢٣٣.

وعلمه التأويل»[١] فمن ردّ عليه بأن الآية ليست مختصة بمنافع الدنيا فقوله في معرض الخطر والرد.

على أنّ جميع المفسِّرين أدخلوا فيها منافع الدنيا مع ما فيها منافع الآخرة داخلة فيها بلا خلاف، وعلى المنوالين يثبت المدّعا بأنّ المنافع شاملة على منفعة الدنيا والآخرة كلتيهما.

وعلى هذا قال الإمام أبو بكر الجصاص في أحكامه:

فاقتضى ذلك أنهم دعوا وأمروا بالحج ليشهدوا منافع لهم[٢].

● وبعد ذكر أحكام الحج وآداب الحج وما يتعلق به قال الله تعالى: ﴿**ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربِّكم**﴾[٣]، ان ليس على الحجاج جناح إن استفادوا وانتفعوا بفضل الله عليهم، والمراد من الفضل في الآية منفعة الدنيا وكسب الأموال وابتياع الأمتعة وكراء المراكب وغير ذلك، على أنّ الفضل قد استفيد منه المنافع المالية والاستخدامية في القرآن والحديث، وجاء في الحديث حين يخرج المصلّي من المسجد يدعو بدعاء فيه: «**اللهمَّ وأسألك من فضلك**».

وجاء في القرآن: ﴿**فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾[٤].

وقال الإمام إسماعيل بن كثير المتوفى ٥٧٤ من الهجرة في تفسير الآية: إنّ المراد من «فضل الله» ابتغاء رزق الله وطلبه، وما نصّه:

﴿**فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾ لما حجر

(١) راجع الاتقان في علوم القرآن، النوع الثمانون في طبقات المفسِّرين ٢: ١٨٧ للإمام عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣: ٢٣٣.

(٣) البقرة: ١٩٨.

(٤) الجمعة: ١٠.

عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، كما كان عراك بن مالك ﷺ: إذا صلّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهمّ إنّي أجبت دعوتك وصلّيت فرضيت وانتشرت كما أمرتني؛ فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين ـ رواه ابن أبي حاتم[١].

فالمراد هنا من «فضل الله» رزق الله لعباده أمر بطلبه إذا قضوا صلواتهم والانتشار له في أرض الله.

وقال الإمام إسماعيل بن كثير: وعن بعض السلف انه قال: من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة بارك الله له سبعين مرّةً.. الخ[٢].

وقال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿**واذكروا الله كثيراً لعلّكم تُفلحون**﴾[٣] أي حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم اذكروا الله كثيراً[٤]. فالمراد من «فضل الله» هو البيع والشراء وإعطاء الأشياء لغيرهم والأخذ منهم.

﴿فضلاً من ربّكم﴾ ـ على ضوء الرواية:

والآية التي ذكرناها من قبل واستشهدنا عليها بهذه الآية والحديث المزبور تدلّ علىٰ أنّ المراد من «فضل الله» رزق الله لعباده في أطراف الدنيا، قال الإمام ابن كثير في تفسيرها المبحوث عنها: إنّ المراد من ﴿**ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربِّكم**﴾ أي من الفضل التجارة في الأسواق في موسم الحج، وذكر الإمام ضمن تفسير لفظة ﴿**فضلاً من ربِّكم**﴾ أحاديث عديدة قوية لامجال للإنكار عنها، هو يقول:

---

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢٦٧.
(٢) ابن كثير ٤: ٢٦٧.
(٣) الجمعة: ١٠.
(٤) ابن كثير ٤: ٢٦٧.

(١) قال البخاري: حدّثنا محمد، أخبرني ابن عيينة عن عمر وابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يتّجروا في الموسم فنزلت: ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربّكم ـ في موسم الحج.

(٢) وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتّجروا فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله هذه الآية.

(٣) وكذا رواه ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية.

(٤) وروى أبو داود وغيره من حديث يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿**ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربّكم**﴾.

(٥) وقال ابن جرير: حدّثني يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا هشام، أخبرنا حجّاج عن عطاء عن ابن عباس أنه قال: ﴿**ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربِّكم**﴾ في موسم الحج.

(٦) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده.

أقول: فاستخرج ابن عباس من الآية أنّ إحرام الحج لا يحرم به البيع ولا الشراء بعده ولا قبله، ولا يحرم به اكتساب المنافع في الموسم.

(٧) عن أبي أميمة قال: سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحجّ ومعه تجارة فقرأ ابن عمر: ﴿**ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم**﴾.

(٨) عن أبي امامة التميمي قال: قلت لابن عمر: أنا نكري فهل لنا من حجّ؟ قال: أليس تطوفون بالبيت وتأتون بالمعروف وترمون الجمار وتحلقون رؤوسكم؟

قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الذي سألتني، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرئيل بهذه الآية: ﴿**ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم**﴾ فدعا النبيّ ﷺ فقال: أنتم حجاج.

فهذه حجة قاطعة على جواز الانتفاع واكتساب المنافع والتجارة في الموسم على ما نصّ عليه النبيّ ﷺ ونزل به القرآن ـ وعلم من الروايات السابقة أن التأثم بالاستفادة والانتفاع بمنافع الدنيا بالتجارة والبيع والابتياع وإكراء الدواب والمراكب في الحج كان دأب الكفّار أيام الجاهلية، وبأنّ الحج ذكر وعبادة لا ينبغي التجارة والاشتغال فيه بأمور الدنيا، كان ظنّ الكفرة الفجرة الجهلة لا يرضى به الإسلام فأبطله وردّ عليه وأوجب على المسلمين؛ ليشهدوا في الموسم منافع لهم فمن لم يشهد المنافع في الحج فاته معظم مقاصد الحج والزيارة؛ لأن حجّه كان حج الجاهلية وقتئذ، ومثل هذه الروايات جاءت رواية أخرى كما تأتي الآن.

(٩) عن العلاء بن المسيب عن رجل من بني تميم قال: جاء رجل إلى عبدالله ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن! إنّا قوم نكري، ويزعمون أنه ليس لنا حجّ، قال: ألستم تحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون؟ قال: بلى، قال: فأنت حاج.

(١٠) عن أبي صالح مولى عمر قال: قلت يا أمير المؤمنين! كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلّا في الحجّ؟

تلك عشرة كاملة يكفي لمن أراد الحق والحق يتبع (فراجع المصادر من النمرة الأولى إلى العاشرة في السورة ٢ الآية ١٩٨ في تفسير ابن كثير ج١ ص من ٢٣٩ إلى ٢٤٠).

فلا مانع للأُمة أن تنظر في منافعها ومصالح المساكين والفقراء من المسلمين وفكّها من شبكة الظلم والاضطهاد بأيدي أعداء الإسلام والمسلمين، فإنّ المنافع المبحوث عنها تعمّ كلّ المنافع من منافع الدنيا والآخرة على ما مرّ من الشواهد

والحجج الباهرة لها، بل اكتساب منافع الدنيا هو المقصود المهم من إتيان مكة، كما قال ابن عباس في تفسير الآية آنفاً.

وقد شاع في أذهان المسلمين اليوم الفكرة الشنيعة وليدة أيام الجاهلية بأنّ الحج والزيارة، ذكر محض لا تلائمه التجارة واكتساب منافع الدنيا، فكأنهم يظنّون ظنّ الجاهلية الأُولى وهم المسلمون؛ ولأجل ذلك أطلنا الكلام في تفسير «المنافع» الواردة في الآية، وسوف نوضّح بعض أنحائها في المباحث الآتية.

وحدة المسلمين

ومن أهم منافع الحج أن نستفيد من الاحتفال السنوي طوال أيام الحج في الموسم؛ لتوسيع وحدة المسلمين في العالم، ونفتّش عن سُبل تقريب المذاهب الإسلامية على ضوء مناسك الحج ومعالمه حتى نجتمع كما اجتمع المسلمون في صدر الإسلام الموسم، وانتفعوا به في مصالحهم الشخصية ومنافعهم المالية. فإنّ جمعاً غفيراً منهم يحتفلون حول الكعبة كلّ سنة وهم من أهل الثروة والقوّة ورُؤساء الناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿**ليشهدوا منافع لهم**﴾ بلفظ الجمع في صيغة الفعل ﴿**ليشهدوا**﴾ من الشهود وبضمير الجمع في لفظة ﴿**لهم**﴾، والجمع ينبئ عن وحدة الجميع ولفظ الشهود المأخوذ منه ﴿**ليشهدوا**﴾ ينبئ عن معنى الحضور متوجّهاً لأمر مهم؛ ولذا قيل في معنى الحج هو القصد إلى معظم لا إلى شيء هيّن لا يعبأ به، بل راجع إلى معنى الحج لغةً كما مرّ.

ولعمري إنّ الوحدة هي القوّة والعزّة والشرف والنصرة، والوحدة هي نعمة عظمى من المسلمين لسائر العالم لا للمسلمين خاصة على اختلاف الجنس والدين والمنطقة، فإنّ المسلم يسلم وجهه لربّ العالمين، ويقيم أحكام الله العادلة على الناس متجانفاً عن العصبية الجنسية ومخالفة الملّة والدين، فقد قال الله تعالى أمراً لمن آمن به وأسلم وجهه لله:

﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ على ألّا تعدِلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾(١).

فهذه هي صفات المؤمن بالله مسلماً له وجهه، أمره الله تعالى أن يقوم بالقسط بين الناس ويعدل بينهم، وأن لا يحيف عليهم ولا يجرمنه شنآن قوم على أن لا يعدل وحضه على العدل والإنصاف؛ لأنّ العدل أقرب للتقوى والله يحبّ المتّقين.

وأمرهم على أداء الشهادة بالقسط ولو كانت على أنفسهم والأقربين فقال تعالى: **﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسط شُهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾**(٢).

فاجتماع مثل أولئك الناس ووحدتهم فيما بينهم رحمة ونعمة عظمى للمجتمع الإنساني لاشك فيها، ومثل هذه الوحدة العادلة لا توجد في العالم الحالي الخالي من العدل والقسط حتى إنّ الأُمّة المسلمة قد فقدت مزاياها بأنها العادلة المقسطة فيما بين الناس وبين أنفسهم أيضاً، فيا للأسف! وقد قال الله تعالى موقظاً للأُمّة المسلمة منبّهاً لها لفرائضها:

﴿مِلَّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكون الرّسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾(٣).

● فوحدة المسلمين نعمة لسائر العالم؛ لأنّ أبناء الأُمّة المسلمة شهداء على الناس بالقسط والعدل وفيما بينهم، وهذه الفريضة عليها وعليها أن تقوم بها بين الناس، فمبنى وحدة المسلمين هو القسط والعدل بين الناس، ولفقده فقدت الوحدة بين الأُمّة المسلمة ونشأت الفرقة وولدت أمها الخبيثة مفاسد لا تحصى ولا تعدّ.

---

(١) المائدة: ٨.

(٢) النساء: ١٣٥.

(٣) الحجّ: ٧٨.

ونيران فقدان الوحدة تضطرم في أكناف العالم الإسلامي الحالي، وقودها المسلمون المقتتلون بين أنفسهم، في أفغانستان وباكستان ومصر والجزائر، وإخراج الأُمّة المسلمة كان الهدف منه في بدء نشأتها أن يكون خير الأُمم قاطبةً أُخرجت للناس ونفعهم بأمرهم بالخير ونهيهم عن المنكر وتؤمن بالله. قال الله تعالى في شأنها:

﴿كنتم خيرَ أُمّة أُخرجت للناس تأمُرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾[1].

وأيّما أُمّة تقوم لنفع الناس بأن تأمرهم بالخير وتنهاهم عن المنكر وهي تؤمن بالله ربّ العالمين فهي خير لهم جميعاً، فإنّ إقامة الخير وإنهاء المنكر عن الناس عليه مدار العالم وأمن مجتمع الأُمم والناس جميعاً وهو مرسى السلامة والسكون. فلا ريب أن اتّحدت أُمة لإقامة تلك المقاصد العالية فاتحادها ينفع الناس ويجعل حياتهم طيبة مرضية وكانت الأُمّة المسلمة المرحومة بصددها أن اتحدت وتوحّدت بصميم القلب، فتهب ريح السلامة والعافية على العالم الكئيب المصاب بمصائب شتى، ولنيل هذا المرام العالي حضّ الله تعالى المسلمين بقوله:

﴿ولتكن منكم أُمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأُولئك هم المفلحون ● ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأُولئك لهم عذاب عظيم﴾[2].

وهذه الآية الكريمة ترشدنا إلى سبيل الرشاد والنجاة والوحدة والاخوة وإلى اجتناب الفرقة والخلاف فيما بيننا، وتحضّنا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتصل بنا إلى الفوز والفلاح الموعود بقوله **﴿وأُولئك هم المفلحون﴾** وحذّرنا الله تعالى من الخلاف والفرقة بعدما جاءنا البيّنات فيصيبنا **﴿عذابٌ عظيم﴾**

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) آل عمران: ١٠٤ ـ ١٤٥.

فياللعجب: إنّ الأُمّة وقعت فيما حذّر الله عنه وانتحلت نحلة الغيّ والضلال وتفرّقت كلّ التفرّق فاستحقّت عذاباً عظيماً، وفاتت الفوز والفلاح الموعود، وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب المؤكّد عليها فذاقت وبال أمرها ﴿**عذاباً عظيماً**﴾ كما حذّر الله عنه، وأي عذاب أعظم من عذاب الرقة والضعة تحت سيطرة اليهود والنصارى والهنود والبوذيين في فلسطين وكشمير ...؟ وليس الملجأ منها إلّا بوحدة المسلمين في سائر العالم والتماسك يداً بيدٍ متشابكين متناصرين كأنهم بنيانٌ مرصوص.

أُسس الوحدة بين المسلمين

المبنىٰ الأوّل: وقد ذكرنا فيما مضى من بحوثنا المبنى العظيم من مباني الوحدة هو العدل والقسط والعمل بهما، فإذا فات عنك العدل والقسط يعود حميمك عدوّاً لك، وإذا عدلت وقسطت فعدوّك كأنّه وليّ حميم؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنّ الله يحبّ المقسطين**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**ولا تستوي الحسنةُ ولا السيّئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌّ حميم**﴾[2].

ونرى الخلاف بل الشقاق بين المسلمين والمحاربة فيما بينهم كما في افغانستان ومصر والجزائر من المنافسات والمنازعات التي وصلت إلى المحاربة والمقاتلة، وقد قال لهم نبيّهم ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.» وفي رواية: «لا ترجعنّ بعدي ضُلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض»[3].

---

(١) المائدة: ٤٢.

(٢) فصّلت: ٣٤.

(٣) مسلم ١: ٥٨ باب معنى قول النبي ﷺ: لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. مسلم ٢: ٦٠ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال.

وهذا هو أمر نبيّهم وقد خالفوه. وقد عجز المسلمون عن منع إطلاق النيران فيما شجر بينهم وما هو السبب؟ لعل السبب التجنّب أو عدم إقامة القسط والعدل بين الفريقين المتحاربين أو عدم وحدة المسلمين ضد طائفة باغية بغت على الأُخرى، فقد قال الله تعالى في الصلح بين الفريقين المتحاربين أن يسلك المصلحون طريق العدل والقسط حينما أرادوا الإصلاح بينهما فقال تعالى:

﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تَفِيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسِطوا إنّ الله يحبّ المقسطين ● إنّما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم تُرحمون**﴾[1].

فإذا نظرنا في تلك الآيات نرى أنّ رفع النزاع وإيقاف النيران والإصلاح بين المسلمين واجب على الأُمّة، وعليها أن تقاتل الطائفة الباغية التي بغت على الأُخرى حتى تفيء إلى أمر الله، فإذا فاءت فعلى الأُمّة أن تصلح بين الطائفتين المتحاربتين بالعدل والقسط لأن المؤمنين كلّهم إخوة. فنهتدي من هنا إلى أنّ العدل والقسط أمر واجب ولازم للإصلاح بين الناس وعلى المصلحين أن ينحازوا إلى الطائفة المظلومة ويقاتلوا التي تبغي وتجبرها حتى تفيء إلى أمر الله أي الصلح ومنع إطلاق النار، وإلى ما يراه المصلحون المقسطون، فيجب على الأُمّة أن تكون يداً واحدةً ضد الطائفة الباغية، ولعل هذا الشرط معدوم في مصالحة الأعداء من الكفر المحاربين وهم لا يقسطون ولا يعدلون في الإصلاح بين المتحاربين، أو فقدت الوحدة ضد الطائفة الباغية العنيدة الناشزة، فالقسط والعدل هو المبنى الأوّل للوحدة والاتحاد بينهم.

والمبنى الثاني: الاعتصام والتمسّك بحبل الله المتين، فإنّ الوحدة الجنسية

(١) الحجرات: ٩ ـ ١٠.

والشعبية واللغوية والنسلية وحتى الاقليمية في طبعها تدعو الأُمّة إلى عدم التفرقة والشقاق والتشتّت على ما تقتضيه النزعة القومية والعصبية والحمية حتى إنّ العصبية إلى فئة تلقي عصا الوحدة والتوحيد والتوحّد في الأُمّة، فلا يقبل الإسلام عصبية إلّا العصبية الدينية المحضة حينما تضرب العصبية المذهبية والحزبية بوحدة الأُمّة على الجدار، وتنقض عصا الوحدة عنها فيقتل التحدّي الوهابي أهل التسنّن وأهل التسنّن يقتلهم (كما جاء في فتاوى الشامي بن عابدين في باب البغاة ص٢٦٣).

وطالما قتل الحنفي شافعياً أو مالكياً أو حنبلياً وعكس ذلك كما ينعته التاريخ تاريخ التفرقة بين المسلمين في الغابر ـ وفي زماننا نرى التقاتل والأعمال الإرهابية بين الشيعة والتسنّن يقتل بعضهم بعضاً وهم مسلمون ـ قد هيّأ بعض منهم منظمة إرهابية فتّاكةً للقتل، يا للغوث على تلك المنظمة الفتّاكة المسمّاة باسم معصوم مثل «جند الصحابة» أي سپاه صحابه و«جند محمد» أي سپاه محمد، وهم يقتلون أُمّة محمّد ولا يشعرون، وذلك لعدم تمسّكهم بحبل الله المتين وأمروا وفق قول نبيّهم: «لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». وقال: «من حمل علينا السلاح فليس منّا»، «القاتل والمقتول كلاهما في النار»[1]. ان ينفكوا عن القتل بعضهم بعضاً، كلّها حمية جاهلية أو عصبية لا يرضى به الإسلام ونبيّه ﷺ.

وقال النبيّ ﷺ في العصبية والحمية الجاهلية ولدعوة السيف: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنّه من جثى جهنم. قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلّى؟ قال: نعم وإن صام وصلّى. وفي رواية «وزعم أنه مسلم»[2].

(١) مسلم ١: ٦٩، البخاري ٢: ١٠٤٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٣: ٢٣٦.

فكلّ الدعوات سوى دعوة الإسلام والدين دعوة الجاهلية والعصبية المحرّمة. ولذا دعا القرآن إلى الاعتصام بحبل الله لا غير، فقال تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تهتدون**﴾[1].

فالآيات الكريمة هذه تهدينا إلىٰ ما نعتصم ونتمسّك به وكيف نعتصم جميعاً أو أشتاتاً، وليتنبّه القارئ أن الأخذ والاعتصام بينهما فرق، الأخذ بالقوّة بحيث لا انفصام له هو الاعتصام، فللأخذ الموثق به هو المأمور بصيغة الأمر ﴿**واعتصموا**﴾ ولا يكفينا إن أخذنا بحبل الله فرادى، بل يلزم علينا أن نأخذ به بقوّة ومكنة جميعاً لا فرادى وأشتاتاً.

وحبال الجنسية والشعبية واللغوية حتى الاقليمية ليست بحبل الله المتين، وحتى النزاعات المذهبية والنزاع الفروعي الديني ليست داخلة في حبل الله، بل هي حبال الفرق الإسلامية وسبلها، وحبل الله هو الآيات المحكمات والسنّة المتواترة التي أجمعت الأُمّة على قبولها، وما أخرجت من الأحكام المستنبطة فهي ثمرات الاجتهاد لايجب العمل بها على جميع الأُمّة بل يجب على مقلّدي المجتهد المعهود فقط على اعتقاد وجوب التقليد الشخصي المتكلّم فيه ـ وليس لأحد أن يجبر أحداً على العمل بالأُمور المجتهدة فيها ـ فالمقلدون أحرار في تقليد أحد من الأئمة المجتهدين، وفيه بحث طويل لا مجال له في المقالة الراهنة.

فإذا تمسّكت الأُمّة بحبل الله المتين نشأت فيها وحدة وثيقة واجتمعت عليه بحيث تنجيها من العراقيل في داخلها وخارجها، وتقويها ضدّ عدوّها، ولإنشاء الوحدة الإسلامية وحدة الأُمّة الاحتفال السنوي احتفال الحج يقدم بين أيدي

(١) آل عمران: ١٠٣.

الأُمّة فرصة ثمينة أن تشاور في الأُمور السياسية والثقافية والتجارة تدير بينها، والأُمور الاستراتيجية وإطفاء الفتن الداخلية والخارجية وإعداد القوّة الحربية الجوية والبرية والبحرية على منوال جديد يقتضيه العصر الحاضر وأن تتفكّر في شؤون الوحدة وائتلاف الأُمّة، فاحتفال الحج السنوي احتفال عظيم حري لإنشاء الوحدة العالمية للأُمّة المسلمة.

المبنى الثالث: لوحدة الأُمّة المسلمة وإنشاء الاخوّة والمودّة بين المسلمين، قال الله تعالى: ﴿**إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتّقوا الله لعلّكم تُرحمون**﴾[١].

فالمؤمنون كلّهم إخوة والفريقان المتحاربان أخوا المصلحين على السواء فينبغي أن يحكموا بينهما بالعدل والقسط على السواء ظنّاً منهم بأنهما إخوان لهم فلا يميلون ميلةً إلى أحدهما دون الآخر زيغاً وظلماً، كما روى عن معاذ بن جبل أن النبيّ ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان أقوام إخوان العلانية أعداء السريرة، فقيل: يا رسول الله! كيف يكون ذلك؟ قال: ذلك برغبة بعضهم إلى بعض ورهبة بعضهم من بعض»[٢].

هذا الحديث هو مرآة الأُمّة المسلمة المرحومة المفتونة فاقدة القسط والعدل في زماننا الحاضر، هي تميل إلى جانب إذا تحكم بين الفريقين المتحاربين القائمين على شفا حفرة من النار. فلا تطيق تنقذ المسلمين من أزماتهم الحالقة الراهنة، كما نرى هذا في أزمة أفغانستان وفلسطين والجزائر وغيرها، هذا لرغبتهم إلى بعضهم ورهبتهم من بعض، وهم إخوان علانية وأعداء سرّاً لا يحكمون بالعدل ولا يقيمون القسط وقد أُمروا به. فصدق الله ورسوله بأنهم إخوان العلانية وأعداء

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) مشكاة المصابيح، باب الرؤيا والسمعة الفصل الثالث: ٤٥٥.

السريرة يميلون إلى بعض ويرغبون عن بعض، فياله من ضياع!

معالم المحبّة في صدر الإسلام:

وأعلن الله تعالى معالم المودّة والمحبّة أسوة للأُمّة المسلمة كما كانت الصحابة عليها، فمدحهم الله تعالى في القرآن العظيم، فقال تبارك وتعالى:

﴿**محمّدٌ رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم...**﴾[1].

فأصحاب الرسول عليه وآله وصحبه ألف ألف صلوات وسلام كانوا رحماء رفقاء بينهم لا يخذلون إخوانهم المسلمين تحت سيطرة الأعداء والكفرة الفجرة، ذوي مودّة صادقة ومحبّة صافية، وكانوا أشداء على الكفار عكس ما كنّا أحبّاء الكفار وبغضاء المؤمنين. وقال الله تعالى في معالمهم أيضاً:

﴿**والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً ممّا أُوتوا ويؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحّ نفسه فأُولئك هم المفلِحون**﴾[2].

الأزمة الفظيعة هي فقدان معالم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم من الأُمّة، وهم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وكانوا متحابّين لا يحسدون إخوانهم المسلمين بما أُوتوا، ولا يجدون في صدورهم حاجةً بما أعطاهم الله من فضله وهم مفلحون، ونحن المسلمين المسلوبين تلك الأخلاق السنية الخاسرين وخسراننا بين أيدينا اليوم وفي الآخرة يتزايد إلى ما لا نهاية له، فخسرنا في الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وبيّن النبي ﷺ صفات الاخوة والمودّة بين المسلمين فقال:

«إيّاكم والظنّ فإنّ الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنابزوا

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) الحشر: ٩.

ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً. وفي رواية: ولا تنافسوا متفق عليه[١].

إذا لاحظنا الصفات المسرودة في الحديث نجدها كالآتي: اجتناب ظنّ السوء فإنّه أكذب الحديث، اجتناب التجسّس والتحسّس، اجتناب التناجش، اجتناب التحاسد، اجتناب التباغض، اجتناب التدابر، اجتناب التنافس، والأمر بكون المسلمين عباد الله اخواناً.

قد ذكر في الحديث التحسس والتجسس، التجسس ظاهر المعنى وهو طلب الخبر خفيةً ومنه الجاسوس، والتحسس هو تطلب العلم بحاسة بأن يسترق السمع أو يبصر شيئاً بحاسة العين خفيةً، والتناجش هو عمل السمسرة ـ السمسار هو الساعي بين البائع والشاري ـ ربما يغلي الثمن أمام المشتري بأن يساومه بأغلى الثمن فيخدع الشاري بأن يشتري المتاع بثمن غالٍ، هذا العمل ينشئ الفرقة والشحناء بين الناس، الحسد تمنّي زوال نعمة الغير والبغض امتلاء النفس من العداوة والشحناء والتدابر، قال العيني: هو التقاطع والتنافس والمسابقة في كسب النفيس لنفسه[٢].

فيالهفي على فوات الصفات الطيبة وحلول هذه الصفات المذكورة! فبعضنا يتحسس بعضاً ويتجسس المعايب ويتناجش ويتحاسد ويتباغض ويتدابر ويتنافس، فصرنا كأننا الأعداء البغضة لسنا إخواناً ولا عباد الله المخلصين، بل عباد الشياطين المردة من الجن والإنس، فيتحامل بعضنا على بعض كأننا حمر مستنفرة فرّت من طاعة الله المستنكرة فغضب الله علينا كأننا المغضوب عليهم والضالون سبيل السلام والعافية، وكأننا كلاب عاوية في الطرق الضيقة المسالك

(١) مشكاة المصابيح باب ما ينهى عنه من التهاجر والتقاطع واتباع العورات، الفصل الأوّل: ٢٧ طبع داكا).
(٢) مأخوذ من الطيبي شرح المشكاة ومن حواشي المشكاة المصابيح ومن لغات شتّى وابن كثير ٤: ٢١٣.

والسلك القذرة، أو كأننا وحوش ينهش بعضنا بعضاً ويصول بعضنا على البعض فيأكل لحمه وشحمه ويخمش الوجوه يسيل منها الدم، فجسد الأُمّة يتقاطر منه الدماء.

ثم الأسف كلّ الأسف أنّ هذا النزاع لا ينفع الأُمّة شيئاً بل هو في نفع أعداء الأُمّة يلقون بيننا العداوة والبغضاء ويمزّقون به وحدة الأُمّة المسلمة تمزيقاً، فيفلحون بطرح برامجهم للاستثمار من أموال المسلمين في حقّهم فهو الاستعمار المتسلّط على بلدان المسلمين قاطبةً.

المبنى الرابع: الاجتناب عن سوء الظنّ.

الظنّ السيئ هو الداء العضال للأُمّة ووليد التنافس والتدابر والشحناء بينهم، وسوء الظن ينشأ منه صغار الدهاء وكباره، ومنها ما يضر الأُمّة بجرح لا يندمل حتى يصبح ناسوراً لا يعود برءاً ويشفى شفاءً فلذا قال النبي ﷺ كما مرّ: «إيّاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وقال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم ولا تجسّسوا...**﴾[1].

فإن بعض الظنّ إثم فيلزم أن يجتنبوا كثيراً من الظن بلا برهان يقطع الشك والوهم كما يزعمون، فالظن واجب الاجتناب عنه مهما كان، حتى يصير يقيناً برهاناً، وقال المفسِّر عماد الدين إسماعيل بن كثير في الظن: وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس غير محله[2].

وقد شاع سوء الظن في المسلمين وكان عليهم حسن الظن بإخوانهم المسلمين، فصار سوء الظن عندهم أولى الأمر من حسن الظن المأمور به فعُكس الأمر بين المسلمين فنُكسوا رؤوساً وذلّوا بأيدي أنفسهم، وجاء عمر بن الخطّاب

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) ابن كثير ٤: ٢١٢.

قال: ولا تظنّ بكلمة من أخيك المؤمن إلّا خيراً وأنت تجد لها محلّاً[١].

وهذا هو الأصل الأصيل لسلوك المسلمين فيما بينهم من القول والفعل والنيّة والعمل عليها ولكن عكس الأمر فصار سوء الظن كأنه الأصيل المأمور به وحسن الظن بالمؤمنين مأثم لا يأتى به في المعاملات والمناقشات إلّا قليلاً، فمرضت الأُمّة بمرض سوء الظنّ بعضهم ببعض وانشقت عصا الوحدة منه، فيظن السنّي بأخيه الشيعيّ أنّ عمله وقوله مشوب بالكذب والخداع، وكذلك يظن الشيعة أن السنّي لا يعتمد عليه في القول والعمل ففشا الوهن والاخن في قلوب المؤمنين ظنّاً ببعضهم ظن السوء بل ظن الجاهلية، فهم متحاربون يسفكون دماء بعضهم بأدنى الظن منهم ويقتتلون.

فالمشتكى إلى الله المتعالي وإلى رؤساء المسلمين وقادتهم وساسة الأُمّة المفتونة، وعلينا أن لا نظنّ السوء بعضنا ببعض ونحمل الأقوال والأعمال على خير محل احترازاً من سوء الظن بالمسلمين وأن نفتّش للأقوال والأفعال محتملاً حسناً، ولا نأخذ الأقوال فيما أراد به القائل والأعمال خلاف ما نوى به العامل، فهذه هي الجناية أو الخديعة المخذولة أعاذنا الله منها ـ وكثيراً ما نرى في التحاور السياسي والدبلوماسي يغلب على التحاور سوء الظن وبطالة اليقين فتعود المحاورة فشلاً، كما نشاهد في الطائفتين المتحاربتين في افغانستان لا تكادان تعتمدان على الفريق المخالف ففشلت المحاورة بينهم مراراً، وحبّ الرئاسة يزيد في البُعد والخذلان، فنشبت الحروب وكُبّت الظروف لا تكاد تمسك شيئاً، والمؤامرة الأمريكية تدقّ وحدة الأُمّة بين الحجرين الثقيلين وتسفك الدماء دماء المسلمين، فمن إيحاءاتها الشيطانية مرّة إلى هؤلاء ومرّة إلى هؤلاء، وما زادتهم إلّا خبالا.

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢١٢.

مضرة العمل بالظنّ

لما أسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه النبيّ ﷺ عاملاً على صدقات بني المصطلق وكان النبي ﷺ وقّت لهم وقتاً يبعث إليهم عاملاً عليهم ليأخذ صدقاتهم فتأخّر الأمر، وظن الحارث بن ضرار سيّد بني المصطلق أنّ التعويق في إرسال العامل إليهم حدث لأمر، فخرج هو وقومه يريدون المدينة ليلقوا رسول الله ﷺ، وخرج الوليد بن عقبة من المدينة عاملاً على بني المصطلق يريدهم، وقطع عليهم الطريق فلمّا رآهم مستقبلين إليه بأسلحتهم، ظن الوليد بأنهم خرجوا للقتال معه وما كان العتاد معه للقتال فرجع على الطريق وقال للنبي ﷺ: إنّ بني المصطلق ارتدّت عن الإسلام وخرجت تقاتله، فغضب النبي ﷺ وغضب المسلمون وبعث إليهم بعثاً حتى جاء الحارث بن ضرار وقومه إلى النبي ﷺ فوضّح الأمر بأنه نشأ من سوء الظن بهم، فكادت الحرب أن تقوم بين المسلمين لأجله، وأنزل الله الوحي على النبي ﷺ وحذّر المؤمنين أن يعملوا بالظنّ بلا تبيّن وتحقّق، قال تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسِقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾[1].

الخرص والزعم قبل التبين لا يكون إلّا ظنّاً وهو كثيراً ما لا يثبت فمن عمل على الظنّ يندم ولا تنفعه الندامة إلّا حسرةً فتضرّر به القوم بجهالة ويندم من يصيبهم على ما فرط منه في حق إخوانهم ونحن نشاهدها يوماً بعد يوم ولا شبهة له يا للغفلة!

وإليكم نصّ الحادثة التي حدثت بين الوليد والحارث بن ضرار على ضوء الرواية:

(١) وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: أنّ الحارث بن ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله ﷺ، فدعاني للإسلام فدخلت فيه

(١) الحجرات: ٦.

وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت: يا رسول الله! أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي دفعت زكاته وترسل إليّ يا رسول الله رسولاً ابان كذا وكذا، ليأتيك بما جمعت من الزكاة.

فلمّا جمع الحارث الزكاة ممّن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته، وظنّ الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم: إنّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان وقّت لي وقتاً يرسل إليّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم الخلف، ولا أرى حبس رسول الله من سخطة، فانطلقوا بنا نأت رسول الله ﷺ.

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث؛ ليقبض ما كان عنده ممّا جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف، فرجع حتى أتى رسول الله فقال: يارسول الله، إنّ الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي؛ فغضب رسول الله وبعث البعث إلى الحارث وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث فلما غشيهم قال: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولِمَ؟ قالوا: إنّ رسول الله بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث محمّداً بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله قال: منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله فنزلت الحجرات: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإ... إلى قوله حكيم**﴾[1].

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٢٠٩.

فانظروا أيّها القرّاء الكرام! فأين ظنّ الوليد وأين الحارث منه؟ والحارث مؤمن صادق، وظنّ الوليد ظنّ كاذب كاد أن يفتن المؤمنين المخلصين لولا نزول الوحي وحضور الحارث بن ضرار المدينة بقومه قادمين؛ لقامت الطامة الكبرى بين المؤمنين، ومثل هؤلاء المصيبة الكبرى نقيمها نحن بجهالة منّا في ساحة الأُمّة. خلو أننا اجتمعنا في مؤتمر الحج كلّ سنةٍ ففاحصنا أمورنا ونتبيّن أحوالنا ولا نعتمد على الدعاية الأجنبية والبوقة الصهيونية المذيعة بيننا أنباءً تسود بها ظنوننا فيسطو علينا الجنون والشرّ يضرّ بنا وبمنافعنا، ويغري العداوة والبغضاء بين المسلمين، كما فعل الحارث بن ضرار وقومه بعد حضوره المدينة مع قومه لإزالة الشبهات الناشئة، فأطفأ نار الحرب المشتعلة بعد كشف الواقع وانجلاء الواقع إلى الحرب لحفظنا مصالحنا وما تضرّرنا بالظن السوء وإثارة الفتن من الأجانب، فتيقّظوا أيّها الاخوة ولا تناموا عن الغيّ والغواية واجتنبوا عن الدعاية العادية الأجنبية.

(٢) وواقعة أخرى هي واقعة خالد بن الوليد في بني خزيمة كما ذكره محمد بن إسماعيل البخاري في كتابه صحيح البخاري ما نصّه:

عن ابن عمر قال: بعث النبيﷺ خالد بن الوليد إلى بني خزيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: «أسلمنا» فجعلوا يقولون: «صبأنا صبأنا»، فجعل خالد يقتل ويأسر ودفع إلى كلّ رجل منّا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كلّ رجل منّا أسيره فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على رسول اللهﷺ فذكرناه له فرفع النبيﷺ يده فقال: اللّهمّ إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد مرّتين[1].

فخالد بن الوليد قد أخطأ حينما ظنّ أنّهم لم يقولوا: «أسلمنا» بل قالوا: «أصبأنا» ومعناه أي تركنا ديننا، ولم يقولوا دخلنا في دين الإسلام فهم ليسوا

(١) البخاري ٢: ٦٢٢ باب بعث النبيﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة.

بمسلمين، وكان عليه أن يتبيّن منهم المراد من قولهم «صبأنا» ولم ينتظر التبيّن بل جعل يقتلهم ويأسرهم، فإذا بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ تبرّأ منه واستعاذ فقال رافعاً يديه إلى السماء: اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد وقال هذه الكلمة مرّتين، فظهر أنّ العمل بالظن خطأ حتى يتيقّن الأمر، ويجب البراءة منه والاستعاذة إلى الله تعالى بالاستغفار والدعاء كما تبرأ النبيّ ﷺ.

(٣) وأصرح منه قصة أسامة بن زيد حبيب النبي ﷺ حين قتل كافراً قال: لا إله إلّا الله خوفاً من سيفه، كما روى مسلم في كتابه الصحيح عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقاف بن جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلّا الله، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته لنبي الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلّا الله؟ وقتلت؟ قال: قلت: يا رسول الله إنّما قالها خوفاً من السلاح قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يقرّرها عليّ حتى تمنيت أنّي أسلمت يومئذ[1].

فعلم أن قتل الكافر بعد قوله لا إله إلّا الله حرام ولو قالها خوفاً من السلاح، فأين يحلّ قتل المسلم القائل من صميم قلبه لا إله إلّا الله؟ وأما الشبهة لا مجال لها في المسألة لأنّ النبي ﷺ قال في جواب أُسامة رضي الله عنه: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟

فالأحكام تجري على الظاهر ولا تجري على الباطن، لا يكلّف الله أحداً أن يفصح الأمر عن القلوب بعد شقّها، ونحن نقتل المسلم بأدنى ريب عصبيةً لمذهب أو حمية لحزب سياسي وقد قال الله تعالى: ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً**﴾[2].

(١) مسلم ١: ٦٨ باب تحريم قتل الكافر بعد قوله (لا إله إلّا الله).
(٢) النساء: ٩٣.

فحرّم الله قتل المؤمن عَمداً وأوجب لقاتله: أن يخلّد في النار، وغضب الله عليه ولعنه، وله عذاب عظيم في الآخرة والآجلة كما نشاهده في الدنيا على صورة القصاص أو الدية إن عفي عنه، أو القتل بأيدي الأعداء وسيرى في الآخرة جزاءه جهنّم خالداً فيها، فهذه نقمات خمس لمن قتل المؤمن متعمّداً بلا وجه شرعي.

المبنى الخامس: التعاون على البرّ والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ونحن المسلمين يجب أن نكون عاملين على ذلك الأساس السامي، إلّا أننا كثيراً ما نعاون على الإثم والعدوان وقليلاً مّا نعاون على البر والتقوى الذي أمرنا به، فعملنا اليوم على عكس ما أُمرنا به، وضد ما قال الله تعالى لنا أمراً لعباده المؤمنين حيث يقول: ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب**﴾[1].

عمّقوا النظر أيّها القرّاء الكرام! إننا أُمرنا بالتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وأُمرنا أن نتّقي الله بائتمار الأمر واجتناب المناهي، فمن خالف الأمر حذّره الله تعالى بشديد العقاب والعقاب منه أشد من العذاب كأنه العذاب الغرام والعقاب يعمّ في الدنيا فيعاقبنا فيها إذا خالفنا أمره كما أمر.

يقال: «إنّ الحق مرّ ولو كان درّاً» فالحق أقول وبه أصول ولا نخاف في الله لومة لائم كائناً من كان ولو كره المبطلون: إنّ العالم الإسلامي ورُؤساء المسلمين في العالم قد مسّهم العقاب كما وعدوا في الآية بمخالفتهم إيّاها، ومسّتهم المذلّة والمسكنة والضعف؛ لأنهم يعاونون على الإثم والعدوان وكان عليهم أن يعاونوا على البرّ والتقوى، ولا يتّقون، فهم ينصرون الظالم على المظلوم ويخذلون المظلوم تحت ضغطة الظلمة الطغاة.

بل يقال: «الدول المسلمة» لا تعامل على أسلوب البرّ والتقوى بل تسلك

(١) المائدة: ٢.

على منوال التجنّب أو الانحياز في ميدان الشهوات والميدان إليها سياسةً لا ديانةً فتفرّق السُبل بهم وتباعدوا بعضهم من بعض، فنشأ البعد بينهم بُعد المشرقين والمغربين تنقطع عنوق النوق في سيره، فأصبحت الدول الإسلامية كأنهنّ الضرّات لا هن الأخوات تعشن حياةً طيّبةً مرضية فازدادت المنافرة والمناقشة، ووصلت إلى النهاية وتبدّلت المودّة عداوةً والمعاونة مخالفةً، وتضرّرت الأُمّة مضرّةً لا يكافئها اسم الإسلام ورسم الأُمّة الدبلوماسي، فعل الدول المسلمة أن تتعاون عون الأخوات في مصالح الأُمّة المسلمة على البرّ والتقوى، وأن تترك الإثم والعدوان، والعدوان هو عدوان بعض الدول على الأُخرى والنصرة لفئة متحاربة نفاقاً تحت الأستار وظلماً وعدواناً وهو أشدّ إثماً وأزيد معرةً لأزمات الأُمّة المفتونة، أنقذها الله تعالى منها وصانها من الفتن ووفّق قادة الأُمّة وسادتها أن يرجعوا عن الغيّ والضلال، ويفعلوا ما هو ينفعها وفيه منافع المسلمين ومنافع أنفسهم جميعاً لو كانوا يعلمون.

المبنى السادس: هو عدم الانحياز إلى الطغاة الظلمة.

الوحدة تقوم على ساقها وتؤتى أُكلها كل حين إذا كان الوضع موافقاً لها فتترعرع يوماً فيوماً في البيئة المسلمة وتنشعب من جذورها إلى فروعها كالشجرة الطيبة المظلة على اللاجئين تحت ظلّها الظليل فإن فسد الوضع وانفسخ الجوّ تصير الوحدة فيه ضئيلةً لا تستطيع أن تقوم على ساقها وتؤتي أُكلها حتى ضاقت عليها الحياة فتموت مصفرة فقيدة الخضرة والطراوة وتعتريها اليبوسة والجفوف فتنعدم كأنها لم تكن، ولذا علينا أن لا ننحاز إلى الظلمة الطغاة من الساسة، فإنّ وحدة الأُمّة تذهب ضد الظلمة الطغاة فلا يحبونها ولا صبر لهم عليها، فمن أطاع الطغاة أعان على هدم بناء الوحدة الإسلامية، فعدم التعاون مع الطغاة أساس مهمّ لوحدة الأُمّة.

فلذا حذّر نبيّ الرحمة والوحدة عليه الصلاة والسلام عن التعاون ونصرة

الطغاة، كما جاء في الأحاديث مراراً.

فعن أوس بن شرحبيل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام(١).

وهذا الحديث يدلّ صريحاً علىٰ أنّ من يقوي الظالم على ظلمه يخرج من الإسلام والدين والايمان، وهذا الحديث مثل ما قال النبي ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، فمن يقوي الظالم لا يبقى حين يقويه مسلماً. وبعبارة أُخرى: لا يقوي أحد ظالماً حين يقوّي وهو مسلم(٢).

المبنى السابع: هو عدم الانحياز إلى القوى الأجنبية.

الأجانب أجانب ليسوا كالأقارب والأنفس في الواقع، ومنه يتفاوت الميلان طبعاً فيبكي الأقارب عند موت الأقارب، والأجانب لا تدمع عيونهم وإن كانوا أعداء يفرحون بموت أعدائهم، والأجانب للأُمّة المسلمة هم اليهود والنصارى وغيرهم من الذين لا يؤمنون بالنبيّ الأُمّي العربي محمّد ﷺ ولا يصدقون بدينه الحنيف.

والقوى الكبرى تكوّنت بتلك الفرق الأجنبية الكافرة على رأسها أمريكا وفرنسا وبريطانيا وهم نصارى، ويتبعهم اليهود والقوّة الروسية والصينية وغيرها من القوى العالمية الأجنبية تابعة للقوى الكبرى العالمية والهنود غير المسلمين في الهند أجانب أعداء للمسلمين سياسةً وعقيدةً، والبوذية فرع من الهنود خلطوا التوحيد مع الشرك، وهم والهنود ينتحلون نحلة الشرك من عبادة الأوثان والمظاهر والهياكل، وبعض الكفّار لا يقرّون بالإله والخالق للعالم فكلّهم أجانب عن الأُمّة المسلمة المؤمنة بالدين الحنيف ورسالة سيّد الكونين إمام المرسلين

(١) مشكاة المصابيح: ٤٣٦ باب الظلم، الفصل الثالث.

(٢) راجع الترمذي ٢: ٩٠.

رسول ربّ العالمين ﷺ.

يدعو الله تعالى المسلمين إلى عدم الانحياز إليهم فقال تعالى:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم قُل إنّ هدى الله هو الهدى ولئن اتّبعت أهواءَهم بعد الذي جاءك من العلم مالَكَ من الله من وليّ ولا نصير﴾[1].

فجذب الرضا من النصارى واليهود لا يدخر إلا بعدما نتبع ملّتهم كما قال الله تعالى في كتابه **﴿ومن اتبع ملّتهم بعدما جاءه الحق﴾** أي العلم بأن الإسلام هو الحق، فليس له من ولي يحفظه من عذاب الله ولا من نصير ينصره في المصائب والبلايا النازلة منه تعالى.

والحمد لله ربّ العالمين

(١) البقرة: ١٢٠.